

استحبوا أن يلي إذ، لأن إذ للماضي و«حاضر» للماضي، فهناك اتفاق بينهما في الزمن، ومشاكلة بينهما في الماضي يقول ابن يعيش :

«وإذا كان الفعل مضارعاً حسن تقديمه وتأخيرته نحو: جئتكَ إذ يقولون زيد، وإذ زيد يقوم، وإذا كان ماضياً لم يحسن تأخيرته، لا يكادون يقولون : إذ زيد قام، وذلك لأن إذ ظرف زمان ماضٍ، فإذا كان معك فعل ماضٍ استحبوا إيلاءه إياه لتشاكل معناه» (٩٢).

ثانياً : إذ بن الاسمية والحرفية

يذكر النحويون أن إذ قد تخرج عن الاسمية لتكون حرفاً يؤدي ماتوديه حروف المعاني، ومع ذلك فهم ليسوا على اتفاق على هذه الحرفية، لأن بعضهم يرى أنها لا تخرج عن الظرفية. وإذ هذه لها معان عديدة منها :

أ — إذ التعليلية :

يمثل النحويون لـ «إذ» التعليلية بقول الله تعالى : «ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون» (٩٣) أي ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب لأجل ظلمكم في الدنيا» (٩٤).

وقد اختلف النحويون في إذ هذه هل هي حرف أو اسم ؟

ينسب السيوطي في «معترك الأقران» إلى سيبويه أنه يرى أن إذ التعليلية حرف (٩٥).

ويذهب آخرون : إلى أنها ظرف بمعنى :، وقت، والتعليل في رأيهم مستفاد من قوة الكلام وسياقه، وليس من لفظ : إذ

قال السيوطي عند ذكره لـ «إذ» التعليلية : «هل هي حرف بمنزلة لام العلة أو ظرف بمعنى الوقت، والتعليل مستفاد من قوة الكلام لامن اللفظ ؟ قولان المنسوب إلى سيبويه الأول» (٩٦).

وفي رأبي أن قوة الكلام لا تدخل لها في التعليل، فالتعليل في أوضح تعريف له هو: تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر» (٩٧)، فإذا قلنا مثلاً: ذاكر الطالب لينجح، فإن المذاكرة مؤثر لإثبات الأثر الناتج عنها وهو النجاح، ولم يتحقق هذا التعليل إلا باللام التي من معانيها التعليل.

أما قوة الكلام فإنها تعطى للأسلوب تأكيداً، ولم تعطه تعليلاً وفرق كبير بين التأكيد والتعليل.

ولو أنعمنا النظر في تقدير الذين يقولون بظرفية إذ الواقعة للتعليل لرأينا أن في هذا التقدير بُعداً وتكلفاً، وتحميلاً للألفاظ بما لا يحتمل فقد رأوا أنه «إذا قيل: ضربته إذ أساء، وأريد بـ «إذ» الوقت اقتضى ظاهر الحال أن الاساءة سبب الضرب» (٩٨).

وفي نظري، لاداعي لتقدير الوقت في هذا المثال، لأن إذ قامت مقام لام التعليل أى ضربته للإساءة، ومادامت تؤدي معنى التعليل، فإن المناسب أن تكون حرفاً كـ (لام) التعليل..

على أنه يترتب على جعلها ظرفاً إشكالات نحن في غنى عنها.

وقد أشار إلى هذه الإشكالات السيوطي حينما بين أن إذ في الآية السابقة لا تبدل من «اليوم» لاختلاف الزمانين، ولا تكون ظرفاً لـ «ينفع» لأنه لا يعمل في ظرفين، ولا «مشاركون»، لأن معمول خبر «أن» وأخواتها لا يتقدم عليها، ولأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول، ولأن اشتراكهم في الآخرة لافي ظلمهم» (٩٩).

ويحاول الزمخشري أن يخرج من هذه الإشكالات حينما يقدر إذ في الآية بأنها دالة على الظرفية بما نصه: «فإن قلت: مامعنى قوله تعالى: «إذ ظلمتم؟ قلت: معناه، إذ صح وتبين لكم، ولم يبق لكم، ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة، و«إذ» يدل من اليوم، ونظيره:

* إذا ما انتسبنا لم تلدنى لثيمة *

«أى تبين أنى وَلَدُ كَرَمَةٍ» (١٠٠).

والمتدبر لرأى الزمخشري في نصه يرى أن «إذ» في الآية ليست للتعليل وإنما هي بدل من اليوم، باقية على ظرفيتها، ولكن يواجه الزمخشري بمشكلة مؤداها أن إذ ظرف زمان ماضٍ، «ولن ينفعكم وفاعله، «واليوم» المذكور ليس بماضٍ، فكيف يبدل ماضٍ من مستقبل؟

لقد أحس الزمخشري بإشكال هذه القضية، ولكنه وجد مخرجاً لها وهو تنظيره بشرط البيت السابق.

ولوضح هذا التنظير نقول: إن هذا الشرط تكملته:

* ولم تجدى من أن تُقرى بها بدّا *

وهذا البيت لزائد بن صعصعة، وكانت له امرأة فطمحت عليه، وكانت أمها سرية فقال هذا البيت، وقبلة:

رَمَتْنِي عَنْ قَوْسِ الْعَدُوِّ وَبَاعَدَتْ عبيدةُ زاد الله ما بيننا بُعْدًا (١٠١)
والتنظير بهذا البيت قائم على أن جواب الشرط وهو: «لم تلدنى» ماضٍ في المعنى، وإن كان مضارعاً في اللفظ، ومُضَيَّ المعنى جاء إليه من «لم» الداخلة على الفعل المضارع حيث تقلب معناه إلى المضى بعد أن كان صالحاً للحال والاستقبال هذه ناحية.

وناحية أخرى، فإن ولادته حدثت منذ زمن بعيد، ولاشك أن هذا لا يتفق مع إذا التي خصصت للمستقبل.

إن مضى جواب الشرط، والولادة التي حدثت في الزمن الماضي البعيد، كلاهما ليس مراداً للشاعر، وإنما المراد أننا إذا تفاخرنا بتبين لنا أننى لم تلدنى

لثيمة والتبئين مستقبل لاماى، وبهذا التأويل صار الجواب مستقبلاً كفعل الشرط .

والذي دفعنا إلى بيان هذا التأويل هو التزام القاعدة التي وضعها النحويون لفعل الشرط حيث اشترطوا فيه ألا يكون ماضى المعنى، فلا يجوز عندهم إن قام زيد أمس أقم معه .

فإن وجه النحويون بقوله تعالى : «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» (١٠٢) فهذا مؤول والمعنى كما يقول ابن هشام «إن يتبين أنى كنت قلت» (١٠٣) .

والواقع أننا لو قلنا بحرفية إذ، وأنها تقع للتعليل كـ (لام) التعليل لاستغنيا عن هذه التأويلات العديدة، والتقديرىات المختلفة التى لمسناها فى رأى القائلين بالطرفية وعلى رأسهم الرخشى .

والسؤال الذى يقال هنا هل هناك آيات قرآنية، أو شواهد شعرية وقعت فيها إذ تعليلية أو محتملة للتعليل غير ما ذكر؟

ابن هشام يوجب عن هذا التساؤل فىقول :

«وما حملوه على التعليل — قوله تعالى — «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَسْئَلُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ» (١٠٤)، — وقوله تعالى — «وَإِذْ اعْتَرَّتْهُمُومَ وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف» (١٠٥) .

(ومن الشعر) قول الفرزدق :

فأصبحوا قد أعادَ الله نِعْمَتَهُمَ إِذْ هُمْ قُرَيْشٌ وَإِذْ مَامِثْلَهُمْ بَشَرٌ (١٠٦)
وقول الأعشى :

إِنْ مَحَلًّا وَإِنْ مُرْتَحَلًّا وَإِنْ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلًا (١٠٧)

أى إن لنا حلولاً فى الدنيا، وإن لنا ارتحالاً عنها إلى الآخرة، وإن فى الجماعة الذين ماتوا قبلنا إمهالاً لنا، لأنهم مضوا قبلنا، وبقينا بعدهم . وإنما يصح ذلك كله على القول بأن إذ التعليلية حرف كما قدمنا» (١٠٨) .

ومن إجابة ابن هشام عن هذا التساؤل نعلم أنه من المؤيدين لتعليلية إذ وحرفيتها، ففى الآية الأولى يتضح التعليل ولا يحتاج إلى تأويل فلعدم اهتدائهم رموا ما جاءت به الرسل بأنه إفك قديم.

وفى الآية الثانية تعليل لاعتزال أهل الكهف قومهم، واعتزال عبادتهم المتمثلة فى الأصنام.

وفى بيت الفرزدق السابق لتعدد الاستشهاد به فى كتب النحويذكرة البغدادى فى الخزانة متحدثاً عن إذ فىقول : «إذ فى الموضعين للتعليل» (١٠٩) وأما البيت الثانى فقد حلل معناه ابن هشام — فيما سبق — وفى ضوء هذا التحليل لانرى واضحاً إلا معنى التعليل.

على أن الجمهور لا يثبتون هذا القسم لـ «إذ» ويجردونها من معنى التعليل.

ومعظم المفسرين درجوا على هذا المنهج، واتخذوا مذهب الجمهور مذهبا فهاهوذا الفخر الرازى يقدر الآية الأولى بقوله:

«واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام أجاب عنه بقوله : «وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم»، والمعنى: أنهم لما لم يقفوا على وجه كونه معجزاً فلا بد من عامل فى الظرف فى قوله : «وإذ لم يهتدوا به» ومن متعلق لقوله: «سيقولون»

وغير مستقيم أن يكون «سيقولون» هو العامل فى الظرف لتدافع دلالتى الماضى والاستقبال، فما وجه هذا الكلام؟ وأجاب عنه بأن العامل فى إذ محذوف لدلالة الكلام عليه. والتقدير : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون هذا إفك قديم» (١١٠).

ويقول العكبرى فى تقدير الآية الثانية مانصه :

«قوله تعالى : «وإذا اعتزلتموهم» إذ ظرف لفعل محذوف أى وقال بعضهم لبعض» (١١١).

ولتتضح معنى هذه الآية في ذهن القارئ مع وجود إذ الظرفية نرى أنه من المناسب تكملة النصّ لتتضح رؤية الظرفية فيها من ناحية، ولإزالة بعض الاشكالات في الآية من ناحية أخرى.

قال العكيريّ : «وما يعبدون» في «ما» ثلاثة أوجه :

أحدها : هي اسم بمعنى الذي و «الآلة» مستثنى من «ما» وأمن العائد المحذوف .

والثاني : هي مصدرية، والتقدير : اعتزلتموهم وعبادتهم لإعابدة الله .
والثالث : أنها حرف نفي، فيخرج في الاستثناء وجهان : أحدهما هو منقطع، والثاني : هو متصل، والتقدير : وإذا اعتزلتموهم إلا عبادة الله، أو ما يعبدون إلا الله، فقد كانوا يعبدون الله مع الأصنام، أو كان منهم من يعبد الله» (١١٢).

وفي ختام بحث إذ التعليلية نحب أن نسجل في هذا البحث بيتاً للمتنبيّ أثار قضية فكرية في نفس ابن هشام، ومع أن المتنبي لا يستشهد بشعره في النحو لتأخر زمانه عن أزمنة الفصاحة التي سبقت، فإن ابن هشام ذكر بيته لأمرين

الأمر الأول : أن هذا البيت اشتمل على إذ وهي تحتل التعليل والظرفية

والأمر الثاني : أن أعرابه لوجود إذ فيه يحتاج إلى إيضاح. أما البيت فهو.

أَمِنْ اذْيَارِكِ فِي الدَّجَى الرُّقْبَاءُ ' إِذْ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ ' (١١٣)
يقول ابن هشام : «أضيفت إذ إلى الجملة الاسمية، فاحتملت الظرفية

والتعليلية في قول المتنبي [ثم ذكر البيت السابق].

وشرحه : أن أمن فعل ماض فهو مفتوح الآخر، لامكسورة على أنه حرف جرّ كما توهم شخص أدعى الأدب في زماننا، وأصر على ذلك. والازديار أبلغ من الزيارة كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب، لأن الافتعال للتصرف، والدال بدل عن التاء، و«في» متعلّقة به لا بأمن، لأن المعنى أنهم آمنوا دائماً أن تزورى في الدجى.

وإذ : إما تعليل أو ظرف مُبدل من محلّ في «الدجى»، و «ضياء» مبتدأ خبره :

«حيث»، وابتدىء بالنكرة لتقدم خبرها عليها ظرفاً، ولأنها موصوفة في المعنى، لأن من الظلام صفة لها في الأصل، فلما قُدمت عليها صارت حالاً منها.

و«من» للبدل، وهى متعلقة بمحذوف، «وكان» تامة، وهى وفاعلهما خفض بإضافة «حيث». والمعنى : إذ الضياء حاصل في كل موضع حصلت فيه بدلاً من الظلام»(١١٤).

ب — إذ الفجائية

يبدو أن مصطلح المفاجأة أو إذ الفجائية مصطلح متأخر، نقول ذلك لأننا لم نجد كلمة المفاجأة في كتاب سيبويه حينما تعرض لبحث إذ الفجائية. وإن غابت كلمة (المفاجأة) في كتاب سيبويه فلم يغب معناها، فمعنى المفاجأة قرره سيبويه حينما يقول في «إذ»، و«إذا» اللتان تقعان للمفاجأة : «وتكون [أى إذا] — للشئ توافقه في حال أنت فيها، وذلك قولك : مررت فإذا زيد قائم، وتكون إذ مثلها أيضاً.. وذلك قولك : بينما أنا كذلك إذ جاء زيد، وقصدت قصده إذا نتفخ على فلان، فهذا لما توافقه، وتهجم عليه في حال أنت فيها»(١١٥).

وواضح أن نص سيبويه يشير إلى المفاجأة حينما يقول : «وتكون للشئ توافقه في حال أنت فيها». وهذا المعنى هو بعينه معنى المفاجأة.

والسؤال الذي يطرح نفسه في معرض الحديث عن إذ الفجائية هو: هل هى حرف أو اسم يحمل معنى الظرفية؟

لم يحدد سيبويه معنى إذ حينما تقع للمفاجأة، هل هى حرف أو اسم إنه سكّت بإزائها على حين لم يسكت بإزاء إذا الفجائية حيث قرّر ظرفيتها عند الحديث عنها حينما يقول:

«وأماً إذا فلما يستقبل من الدهر، وفيها مجازاة، وهى ظرف، وتكون للشئ توافقه في حال أنت فيها»(١١٦).

ومن أجل صُنِّت سبويه عن إيداء رأيه في إذ التى للمفاجأة هل هى
حرف او اسم احتدم الجدل بين علماء النحو في معناها:
رأى المبرد ؟:

يرى المبرد أن إذ التى للمفاجأة اسم باق على ظرفيته، وهى في رأيه
ظرف مكان في جواب: «بيننا» أو «بينما»، وهى منصوبة لما بعدها، و«بيننا»
و«بينما» ظرفا زمان له.

قال الرضى موضحاً رأى المبرد: «فمعنى : بينا زيد قائم إذ رأى هنداً:
رأى زيد هنداً بين أوقات قيامه في ذلك المكان أى في مكان قيامه» (١١٧).
فالمفاجأة في رأى المبرد لم تعط لـ «إذ» معنى الحرفية، وانما هى باقية على
ظرفيتها. والجديد في رأى المبرد أنها ليست للظرفية الزمانية، وانما هى للظرفية
المكانية، وبيننا، وبينما قبلها تدلّان على الظرفية الزمانية وهذا هو التفسير لرأى
المبرد الذي أشار اليه الرضى حينما قدر في المثال السابق:

رأى زيد هنداً بين أوقات قيامه، فـ «بين» مضافة للزمان، وبهذه الإضافة
اعتبرت للزمان، و«إذ» تعنى المكان، وهو المشار إليه في عبارة الرضى: «في ذلك
المكان» التى تساوى في معناها — إذ الفجائية .

أما عامل النصب في إذ المكانية عند المبرد في المثال السابق هو ما بعد إذ المتمثل في
الفعل «رأى»، في المثال .

٢ — رأى ابن جنى وابن الباذش :

يرى ابن جنى وابن الباذش أن إذ الفجائية ظرف، وعاملها على الظرفية
الفعل الذى بعدها، لأنها غير مضافة إليه، وعامل: بينا، وبينما محذوف يفسره
الفعل المذكور.

ويوافقهما (الشلوين) في ظرفية إذ غير أنه لا يرى أن عاملها الفعل
الذى يعدها، لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا فيما قبله، وانما العامل في
رأيه محذوف يدل عليه الكلام، وإذ : بدل من بينا أو وبينما (١١٨).

٣ - رأى ابن برى:

و يرى ابن برى أن إذ الفجائية حرف، و يقدر العامل في «بينما» و «بينما» مابعد إذ الفجائية (١١٩).

وهو مذهب يستريح اليه الرضى حيث يقول: «الأولى القول بحرفية المفاجأة» (١٢٠).

٤ - رأى أبى حيان:

يرى أبو حيان: أنها حرف لمعنى المفاجأة إقراراً لها على ما استقر لها» (١٢١).

٥ - رأى ابن مالك:

أنها حرف مؤكد في هذا الأسلوب. (١٢٢).

٦ - رأى ابن الشجرى:

يرى أنها حرف زائد إذا وقعت بعد «بينما» و «بينما» خاصة، قال: لأنك إذا قلت: بينما أنا جالس إذ جاء زيد فقدرتها غير زائدة أعملت فيها الخبر، وهى مضافة إلى جملة: جاء زيد، وهذا الفعل هو الناصب لـ «بين»، فيعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف» (١٢٣).

هذه هى قضية الخلاف في إذ الفجائية هل هى اسم أو حرف؟، وقد عرضنا هذه القضية بجوانبها المختلفة، وقد لمسنا من خلال هذا العرض أن لكل رأى دليله، ولكل قول حجته.

وإن كنت أميل الى الرأى الذى يقول: : إنها حرف، لأن معنى المفاجأة مَعْنَى الاستقبال، والاستقبال يؤدي بحرفى التين وسوف وهو كمعنى التعليل، والتعليل حرف يؤدي معناه باللام، فلم لا يكون معنى المفاجأة يؤدي بـ «إذ»، فيكون حرفاً كغيرها؟

وهناك قضية أخرى تتعلق بـ «إذ» غير قضية الحرفية او الاسمية وهى :
قضية وقوعها جواباً لـ «بيننا» و «وبينما» .

ومن أجل الخلاف حولها، أفردنا بالبحث التالي :

قضية وقوع إذ الفجائية جواباً لـ «بيننا» و «وبينما»

للحريرى في (درة الغواص) بحث جيد في وقوع إذ التي للمفاجأة بعد بيننا أو بينما، لأن القائم في أذهان بعض النحويين أن وقوع إذ هذه بعد: بيننا، أو بينما أمر لازم، وضرورة حتمية، وأسلوب واجب بحيث إنه إذ لم تقع إذ في جواب: بيننا، أو بينما عُدَّ هذا الأسلوب ضعيفاً أو قليل الاستعمال، فأراد الحريرى أن يزيل هذا الوهم، ويبتدئ هذا الفهم ليؤكد هؤلاء النحويين أنه ليس من الضرورى أن تقع إذ جواباً لهذين الطرفين، بل إن الكثير الشائع أن يأتى جوابهما مجرداً منها وهو خلاف الشائع عند النحويين .

ولطرافه بحثه، وسلامة تدليله، وجمال عرضه أترك للقارىء فرصة الاستمتاع به .

يقول الحريرى مانصه : «و يقولون: بيننا زيد قام إذ جاء عمرو فيتلقون «بيننا» بـ «إذ»، والمسموع عن العرب: بيننا زيد قام جاء عمرو بلا إذ، لأن المعنى فيه بين أثناء الزمان جاء عمرو، وعليه قول أبى ذؤيب:

بَيْنَا تَعْنِقُهُ الْكُمَاةُ وَرَوْعِهِ يَوْمًا أُتِيحَ لَهُ جَرَىءٌ سَلَفَعُ (١٢٤)
فقال : أتيج، ولم يقل : إذ أتيج.

وهذا البيت ينشد بجرّ «تعنقه» ورفع، فمن جرّ جعل الألف في «بيننا» ملتحقة لإشباع الفتحة لأن الأصل فيها: «بين»، وجرّ «تعنقه» على الإضافة.

ومن رفع رفعه على الابتداء، وجعل الألف زائدة ألحقت بـ «بين» لتوقع بعدها الجملة كما زيدت «ما» في بينما لهذه القلة.

وذكر أبو محمد بن قتيبة قال: سألت الرّياشي عن هذه المسألة، فقال: إذا ولي لَفْظَة: «بيننا» الاسم العلم رفعت، فقلت ؛ بينا زيد قام جاء عمرو وإنّ وليها المصدر فالأجود الجرّ كهذه المسألة .

وحكى أبو القاسم الآمدي في أماليه عن أبي عثمان المازني، قال: حضرت أنا ويعقوب بن السّكيت مجلس محمد بن عبد الملك الزيات، فأفضنا في شجون الحديث الى أن قلت: كان الأصمعي يقول: بينا أنا جالس إذ جاء عمرو فقال ابن السّكيت: هذا كلام الناس، قال: فأخذت في مناظرته، وإيضاح المعنى له، فقال لي محمد بن عبد الملك دغني حتى أبين له ما اشتبه عليه، ثم التفت إليه، وقال له: مامعنى بينا، فقال: حين، قال: أفيجوز أن يقال: حين جلس زيد إذ جاء عمرو فسكت. فهذا حكم: «بيننا». وأما بينما فأصلها أيضاً: بين، فزيدت عليها «ما» لتؤذن بأنها قد خرجت عن بابها بإضافة «ما» إليها.

وقد جاءت في الكلام تارة غير ملتقاة بـ «إذ» و «إذا» اللذين للمفاجأة، كما قال الشاعر:

• فبينما العُسرُ إذ دارت مياسيرُ • (١٢٥)

وكقوله في هذه القطعة :

وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَخْيَاءِ مُقْتَبِظٌ إِذَا هُوَ الرَّمْسُ تَغْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
فتلقى هذا الشاعر «بينما» في البيت الأول بـ «إذ»، وفي الثاني بـ «إذا» وليس بسدع أن يتغير حكم «بين» بضم «ما» إليه، لأن التركيب يزيل الأشياء عن أصولها، ويحيلها عن أوضاعها ورسومها، ألا ترى أن: «رب» لا يليها إلا الاسم، فإذا إتصلت بها «ما» غيرت حكمها، وأولتها الفعل كما جاء في القرآن «ربما يؤذ الذين كفروا» (١٢٦). وكذلك «لم» حرف، فإذا زيدت عليها «ما» وهي أيضاً حرف صارت «لتما» اسماً في بعض المواطن بمعنى: حين نحو قوله تعالى: «ولما جاءت رُسُلنا لُوطاً» (١٢٧)، وهكذا، «قل»، و«طال» لا يجوز أن يليهما الفعل، فإذا وصلتا بـ «ما» وليهما الفعل كقولك: طالما زرتك، وقلما هجرْتُكَ» (١٢٨).

في ضوء نص الحريري الذي استوعب فيه قضية إذ الفجائية في جواب
بيننا أو بينما أستطيع أن أقول: إن استدلال الحريري على جواز انفكاك جواب
بيننا، وبينما من إذ قد استقاه من نص سيبويه حينما مثل سيبويه لـ «إذ»
بمثالين، وهما: بينما أنا كذلك إذ جاء زيد، وقصدت قصده إذا نتفخ على فلان.

وعلق سيبويه على هذين المثالين بقوله: «فهذا لما توافقه، وتهجم عليه
في حال أنت فيها» (١٢٩).

ومع أن نص سيبويه يميز أن تقع إذ جواباً لهما، فإن كثيراً من
النحويين وعلى رأسهم الأصمعي ينكرون هذا، ويقولون: لاجابة إلى إذ ألا ترى
أنك تقول: حين زيد جالس قام عمرو، وبينما بمنزلة: حين، قالوا: وأشعارهم
وردت بلا إذ، وما استشهدوا به بيت أبي ذؤيب» (١٣٠) الذي سبق ذكره.

والواقع أن سيبويه يؤيده في رأيه، ويسنده في قوله بعض أشعار جاءت
على غير نهج أسلوب أبي ذؤيب وإذا كان الأمر كذلك، فلاداعي للإنكار
الأصمعي ومن تبعه لهذا الأسلوب، وإنما المنهج السليم أن يقال: جواز ذكر إذ بعد
بيننا أو بينما وجواز عدم ذكرهما، ومن غير شك فهذا تنوع في الأساليب، واتساع في
التعبير، وحرية في الاستعمال.

ومن الشواهد التي تؤيد سيبويه قال الشاعر:

بينما نحن بالكثير ضحى إذ أتى راكب على جملة. (١٣١)
وقول الشاعر:

استقدر الله خيراً وارضين به فبينما العسر إذ دارت مياسير (١٣٢)
ومن ذلك قول حميد الأرقط:

بيننا الفتى يخبط في غيشائه إذ انتمى الدهر إلى عفراته (١٣٣)
وقول القطامي:

فبينما غمير طامح الطرف يتنقى عبادة إذ واجهت أضجَمَ دأخثر (١٣٤)

وليس هذا الأسلوب خاص بالشعر، فقد ورد في الحديث :
«بيننا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل...» (١٣٥).
فهذه الشواهد أدلة قوية تُرجح رأى سيبويه في جواز وقوع إذ الفجائية
جواباً لهذين الظرفين.

وليس معنى ذلك أن وجودها في مثل هذه الأساليب ضرورة لا بد منها
والتزام لا بد من المحافظة عليه، وذلك لأنه كما وردت إذ جواباً في بعض
الأساليب وردت أساليب أخرى مجردة من إذ .
ومن هذه الأساليب بيت أبي ذؤيب السابق.
ومنها أيضاً قوله :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَقُضِرْكَ الْمَوْتُ لَا مَزَحَ لُ عَنْهُ وَلَا قُوْتُ
بَيْنَا غِنَى بَيْتٍ وَبِهَجِيَّتِهِ زَالَ الْغِنَى وَتَقَوَّضَ الْبَيْتُ
وقول ابن هرمة في باب النسيب من الحماسة :

بَيْنَمَا نَحْنُ بِالْبَلَاكِثِ فَالْقَاعِ سِرَاعاً وَالْعَيْسُ تَهْوِي هَوِيّاً
خَطَرَتْ خَطَرَةً عَلَى الْقَلْبِ مِنْ ذِكْرِكَ وَهَتَا فَمَا اسْتَطَعْتُ مُضِيّاً (١٣٦)
على أنه يلاحظ أن بيت أبي ذؤيب الذي استشهد به الحريري على جواز
تجرّد جواب «بيننا» من إذ، أضيفت «بيننا» فيه للمصدر الذي بعدها وهو:
«تعتقه»، ومعنى ذلك أن «بيننا» أضيفت إلى الأسماء المفردة. وبعض النحويين
لا يمتنعون ذلك، لأن المصادر فيها معنى الفعل وذلك للحمل على حين كقولك:
«بيننا قيام زيد أقبل عمرو، أى حين قيام هذا أقبل ذاك» (١٣٧).

و يبين لنا البغدادي في الخزانة أنه إذا وقع بعدها اسم جوهر لم يكن
إلا رفعاً نحو: بينا زيد في الدار أقبل عمرو لأنها ظرف زمان فلا تضاف إلى جثة
كما لا تكون خبراً عنها» (١٣٨).

ومن الجدير بالذكر أن نسجل هنا أن الأصمعي «كان يقول : بينا
يضاف إلى المصادر خاصة، والنحويون يخالفونه، ويقولون: بينا وبينما عبارتان

للحين، وهما مبهمتان لا تضافان الا إلى الجمل التي تبينها فإذا قلت : بينا أنا جالس طلع زيد فالمعنى: حين أنا جالس أو وقت أنا جالس طلع زيد» (١٣٩).

ومعنى ذلك أن معظم النحويين ينعون اضافة «بينما» إلى ما بعدها فإذا اعترض عليهم بيت أبى ذؤيب، قالوا: إنّ «رواية النحويين والناس: «بينما تعنقه الكماة، فيرتفع «تعنقه» بالابتداء ويكون خبره مضمراً كأنه قال : بينا تعنقه الأبطال حاصل معهود ومعتمد مألوف أتيح له يوماً رجل جرىء» (١٤٠).

ومجدربنا، ونحن نعالج قضية اذ الفجائية في جواب بينا وبينما أن نشير إلى أن هناك فرقاً بين الأسلوبين، أو بعبارة أخرى بين الصيغتين، ولانباغ إذا قلنا قد تعدد الدلالة، و يتنوع الأسلوب، وذلك ماسنناقشة في النقطة التالية :

الفرق بين «بينما» و«بينما» في الدلالة والاستعمال:

إن أصل «بين» كما يقول الرضى: «أن يكون مصدراً بمعنى : الفراق، فتقدير: جلست بينكما أى مكان فراقكما، وتقدير: فعلت بين خروجك ودخولك أى زمان فراق خروجك ودخولك، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه» (١٤١).

ومن هذا النص نتبين أن : «بين» تستعمل في المكان والزمان، لأنه: «إن أضيف إلى الأمكنة أوجثت غيرها فهو للمكان نحو: بين الدار، وبين زيد وعمرو.

وإن أضيف إلى الأزمنة فهو للزمان نحو: بين يوم الجمعة والأحد. وكذا إن أضيف إلى الأحداث نحو: بين قيام زيد وقعوده إلا أن يراد به مجاز المكان نحو قولك: زيد بين الخوف والرجاء، استعيرت لما بين الحدثين مكاناً، فلهذا وقع «بين» خبراً عن الجثة» (١٤٢).

وتوضيح العبارة الأخيرة في نص الرضى: أن بين الحدثين: الخوف

والرجاء مدة زمنية، وقد استعير هذا الزمن الواقع بين الحدين للمكان، فكان مابين الحدين، الخوف والرجاء مكان، وهذا المكان متمثل في : «بين» .

ومن أجل وقوع «بين» مكاناً على جهة الاستعارة صحت أن تكون خبراً عن الذات التي عبر عنها الرضى بالجثة، وذلك لأن ظرف الزمان لا يقع خبراً عن الذات فلا نستطيع أن نقول مثلاً: محمد الساعة ولا خالده اليوم، على حين يمكننا أن نقول: المذاكرة الساعة، والصوم اليوم، وهذا بسبب أن ظرف الزمان لا يقع خبراً للذات، وإنما يقع خبراً لأسماء المعاني، وبخلاف ذلك ظرف المكان الذي يقع خبراً عن الذات مثل الجامعة أمامك، وخبراً عن المعاني مثال: الاستعداد عندك.

ويضيف الرضى حقيقة أخرى لـ «بين» حينما يقرر أن : «بين» حينما تلحق بها الألف لتكون: «بيناً» أو «ما» لتصبح: «بينما» لا تكون إلا للزمان حينما تضاف إلى الجمل، لأنه لا يضاف من ظروف المكان إلى الجمل إلا حيث.

قال الرضى: «وأما إذا كتبت بـ «ما» أو الألف وأضيف إلى الجمل لا يكون إلا للزمان لما تقدم أنه لا يضاف من المكان إلى الجمل إلا حيث» (١٤٣).

وأما الفرق بين: «بيناً» و «بينما» فهو كما يقول اللسان: قال أبو عمرو: (١٤٤) سمعت المبرد يقول: إذا كان الاسم الذي يحىء بعد «بيناً» اسماً حقيقياً رفعته بالابتداء، وإن كان مصدراً خفضته ويكون: «بيناً» في هذا الحال بمعنى: بين . قال : فسألت أحمد بن يحيى عنه، ولم أعلمه قائله، فقال هذا الدرر» (١٤٥).

وأما بينما فإن الألف فيها يختلف عن «بيناً» وذلك لأن الاسم بعدها مرفوع دائماً سواء كان اسم ذات أو اسم معني . قال في اللسان: «وأما بينما فالاسم الذي بعده مرفوع وكذلك المصدر» (١٤٦).

في ضوء هذين النصين نصل الى الحقائق الآتية بالنسبة لهاتين الصيغتين:

أ — ما بعد «بيننا» إن كان اسماً حقيقياً ويعنى بالاسم الحقيقي المقابل لاسم المعنى — رفع هذا الاسم .

ب — إن كان ما بعد «بيننا» اسم معنى جرّ بالإضافة وحينئذ تكون «بيننا» بمعنى «بين»، وإذا كانت كذلك فإنها تأخذ حكم: بين في الإضافة . وبين كما علمنا «لا يضاف إلا لما يدل على أكثر من الواحد، أو ما عطف عليه غيره بالواو دون سائر حروف العطف نحو: المال بين القوم، والمال بين زيد وعمر» (١٤٧)

وظاهر الأمر أن «بيننا» بالألف لا تضاف إلى ما تضاف إليه «بين» لأن «بين» إذا أضيف إليها الألف لا تكون إلا للزمان، وإضافة ما يدل على الزمان إلى الجمل أمر مقرر في الأساليب العربية، وجائز استعمالاً مثل: أتيتك زمن الحجاج أمير، أو أوان الخليفة عبد الملك.

أما بين كما يقول الرضى في نص سبق ذكره — إن أضيف إلى الامكنة فهو للمكان، وإن أضيف إلى الأزمنة فهو زمان.

ح — إذا كانت الجملة مبدوءة بـ «أينما» فالاسم الذي بعدها مرفوع دائماً.

هذه هي أهم الفروق بين «بيننا» و «بينما»، وقد عرفنا من قبل أن أصل هاتين الصيغتين: «بين»، وبإضافة اللاحقتين الألف و «ما» عليها تغير الحكم من الناحية الوظيفية، ومظاهر هذا التغير ما يأتي:

أ — وقوعهما في أول الجملة، لأنهما ظرفان يتبدأ بهما .

ب — أن يكون لهما جواب، مقرون بـ «إذ» أو غير مقرون .

٣ — أن تضافا إلى الجمل

وفي هذا التغيير في الحكم، والدلالة، والوظيفة يقول الحريري: «ومن جعل الألف زائدة ألحقت بـ «بين» لتوقع بعدها الجملة، كما زيدت «ما» في بينما لهذه العلة» (١٤٨).

ولم يكتف الحريرى بهذه القلة بل أضاف إليها دليلاً آخر حينما يقول: «وليس بدع أن يتغير حكم «بين» بضم «ما» إليه، لأن التركيب يزيل الأشياء عن أصولها، ويحيلها عن أوضاعها ورسومها، ألا ترى أن: «رب» لا يليها إلا الاسم، فإذا اتصلت بها «ما» غيرت حكمها، وأوليتها الفعل كما جاء في القرآن: «ربما يود الذين كفروا» (١٤٩).

وكذلك: «لم» حرف، فإذا زيدت عليها «ما» وهى أيضاً حرف صارت «لما» اسماً في بعض المواطن بمعنى: حين نحو قوله تعالى: «ولما جاءت رُسُلنا لوطا» (١٥٠).

وهكذا، «قَلَّ» و «طال»، لا يجوز أن يليهما الفعل، فإذا وصلت بـ «ما» وليهما الفعل كقولك: طالما زرتك، وقلما هجرتك» (١٥١).

وقبل أن ننهي الحديث عن إذ التي للمفاجأة أحب أن أشير الى خطأ مشهور لا يسلم منه كثير من المثقفين حتى الخاصة، فقد درجوا أن يقولوا مثلاً: العرب مختلفون بينما الأعداء متفقون، وهو أسلوب لا تعرفه العربية، لأن «بينما» و «بينما» تقعان في أول الجملة حيث يتبدأ بهما، ولا تقعان في وسط الكلام. والصواب أن يقولوا في مثل هذا التعبير:

العرب مختلفون على حين الأعداء متفقون.

ج - إذ الزائدة :

هل وقوع إذ زائدة حقيقة مسلم بها في الدراسة النحوية؟
الواقع أنها قضية ثار حولها الجدل، واحتدم النزاع، وتصارعت الأفكار، ولعل أول من فتح باب هذه القضية إمام اللغويين والنحويين أبو عبيدة معمر بن المثنى، فقد ادعى أن إذ تقع زائدة.

ومعنى زيادتها أنها لغو لا تحمل معنى، ولا تعطى بياناً، ولا تفيد شيئاً، وهذا أمر غريب، وغريب حقاً من أبى عبيدة أن يقول ذلك، لأن إذ في أصل

وضعها جاءت لمعنى، ولو حكمنا باسميتها، وهو الكثير الغالب فإنه من الخطأ أن نقول بزيادتها في حالة الاسمية، لأن أقرب تعريف للاسم في النحو: هو اللفظ الدال على معنى، فكيف إذن يجعلها أبو عبيدة لتصبح بلامعنى، وبخاصة في كتاب الله.؟

ولنترك أبا عبيدة يعرض رأيه في هذه القضية:

يقول أبو عبيدة في قوله تعالى: «إذ قالت امرأة عمران رب، إنى ندرت لك ما فى بطنى مُحَرَّراً، فتَقَبَّلْ مِنى» (١٥٢).

قال الفخر الرازى: قال أبو عبيدة: إنها زائدة لغواً، والمعنى: قالت امرأة عمران، ولا موضع لها من الإعراب» (١٥٣).

وكرر أبو عبيدة القول بزيادتها في موضع آخر، فقد قال في قوله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة» (١٥٤).

قال أبو جعفر الطبرى: «زعم بعض المنسوين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة أن تأويل قوله: وإذ قال ربك: وقال ربك، وأن: إذ من الحروف الزائدة، وأن معناها الحذف» (١٥٥).

ومن غير شك أن قائل ذلك فى نصّ الطبرى هو أبو عبيدة، لأن الفخر الرازى صرح باسمه فى النص الذى سقته قبل نصّ الطبرى.

وموضع التساؤل هو لماذا لم يصرّح بذكره الطبرى كما صرح بذكره الفخر الرازى؟ يبدو لى أن الطبرى تجاهل ذكر اسمه لسخافة رأيه فى قضية زيادة إذ، وأنه فى نظر الطبرى لم يكن على قدر كبير من العلم يجعله يصرّح باسمه، والآ فما سرّ هذا التعبير الذى يحمل الاستخفاف حينما يقول: «زعم بعض المنسوين إلى العلم» إن كلمة: المنسوين إلى العلم هى الاستخفاف بعينه إن لم تكن تحمل معنى الاستخفاف.

والواقع أن الطبرى لم يكن المنفرد بين العلماء فى هذا الرأى، لأنه يبدو لى أن أبا عبيدة وإن كان كما يقول يزيد بن مرة: «ما كان أبو عبيدة يفتش عن

علم من العلوم إلا كان مَنْ يفتّشه عنه يظن أنه لا يحسن غيره، ولا يقوم بشيء، أجود من قيامه به» (١٥٦) أو كما يقول أبو نواس عنه: «أديم طوى على علم» (١٥٧) — ليس له باع طويل في علم العربية لأنه كما يقول أبو قتيبة: كان الغريب أغلب عليه وأيام العرب وأخبارها» (١٥٨) والعلم بالغريب غير العلم بالتراكيب. والنص المؤيد لرميه بالضعف في النحو أو التراكيب العربية ما ذكره أبو حاتم حينما قال عنه:

«وكان مع علمه إذا قرأ البيت لم يقم إعرابه، وينشده مختلف العروض» (١٥٩) ولا شك أن هذا الضعف في النحو هو الذي حل الطبري على أن يتجاهل اسمه، ويجعله منسوباً إلى العلم، ولم يجعله من أهل العلم. على أية حال، فإن عبارة الطبري تحمل في طياتها الغض من قدر أبي عبيدة في مجال النحو والإعراب.

نقد رأى أبي عبيدة :

نقد الزجاج :

قال الزجاج : «لم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً، لأنه لا يجوز إلغاء حرف من كتاب الله تعالى، ولا يجوز حذف حرف من كتاب الله تعالى من غير ضرورة» (١٦٠).

نقد الطبري :

قال الطبري: «والأمر في ذلك بخلاف ما قال، وذلك أن إذ حرف يأتي بمعنى الجزاء، ويدل على مجهول من الوقت، وغير جائز إبطال حرف كان دليلاً على معنى في الكلام» (١٦١).

وبعد نقد الزجاج والطبري لرأى أبي عبيدة، وإنكار زياد إذ في الآيتين نعرض لأدلة القائلين بعدم زيادة إذ، وأنها ما وضعت في الكلام إلا لتؤدي معنى من المعاني.

ونتناول أراءهم في الآية الأولى وهي : «وإذا قالت امرأة عمران» الخ
ثم رأى الطبري في الآية الثانية وهي : «وإذ قال ربك للملائكة» وسأحاول أن
أبدى رأيي في هذه القضية بعد ذلك إن شاء الله :

— رأى المبرد في الآية الأولى :

يرى المبرد في الآية الأولى وهي آية آل عمران أنَّ إذ معمول الفعل محذوف تقديره :
اذكر، وتبعه الأخفش حيث وافق على رأيه، وقدّر تقديره، قال الفخر الرازي
مانصه : «قال الأخفش والمبرد : التقدير: اذكر إذ قالت امرأة عمران» (١٦٢).

رأى الزجاج :

يرى الزجاج : أن التقدير ليس «اذكر» كما يرى المبرد والأخفش، وإنما
هو: اصطفى المذكورة قبل «إذ» .. ونص رأيه كما ذكره الفخر الرازي «قال
الزجاج : التقدير: واصطفى آل عمران على العالمين إذ قالت امرأة عمران» (١٦٣)

نقد رأى الزجاج :

طعن ابن الأنباري في رأى الزجاج، وقال : «إن الله تعالى قرن
اصطفاء آل عمران باصطفاء آدم ونوح .

ولما كان اصطفاءه تعالى آدم ونوحاً قبل قول امرأة عمران استحال أن يقال: إن
هذا الاصطفاء مقيد بذلك الوقت الذي قالت امرأة عمران هذا الكلام
فيه» (١٦٤).

و يدافع الفخر الرازي عن رأى الزجاج، وعن دفع الاعتراض الذي وجه
إلى رأيه قائلاً :

ويمكن أن يجاب عنه بأن أثر اصطفاء كل واحد إنما ظهر عند وجوده وظهور
طاعته، فجاز أن يقال: إن الله اصطفى آدم عند وجوده ونوحاً عند وجوده، وآل
عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام» (١٦٥).

رأى آخر:

يرى بعض العلماء أن إذ في الآية متعلق بقوله تعالى : «سميع عليم» ولم ينص الفخر الرازي على أصحاب هذا الرأي ، ويبين لنا مَنْ هم بدلاً من كلمة : «بعضهم».

قال الفخر: «قال بعضهم: هذا متعلق بما قبله، والتقدير: والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران هذا القول» (١٦٦).

ويرى الفخر أن هذا الرأي يحمل في طياته اعتراضاً أو سؤالاً، وقد سجل هذا الاعتراض أو هذا السؤال وأجاب عنه.
قال الفخر: «فإن قيل: إن الله سميع عليم قبل أن قالت امرأة عمران هذا القول، فما معنى هذا التقييد؟

قلنا: إن سمعه تعالى لذلك الكلام مقيدٌ بوجود ذلك الكلام، وعلمه تعالى بأنها تذكر ذلك مقيدٌ بذكرها لذلك، والتغيير في العلم والسمع إنما يقع في النسب والمتعلقات» (١٦٧).

موقع إذ في الآية الثانية وهي آية البقرة :

أنكر أبو جعفر الطبري بشدة وقوع إذ زائدة في القرآن الكريم، وحمل على ابن عبيدة في قوله بذلك، لأن القرآن الكريم لا يوجد فيه كلام زائد، لأن كل كلمة من كلماته تؤدي معنى، لأنها سيقّت من أجل هذا المعنى، فالقول بزيادة بعض الكلمات في القرآن كـ «إذ» لغو من القول، وضرب من الهذيان، ولم يكتف أبو جعفر بالنقد العام، ولكنه نقد غلبيّ، مبيناً رأيه في إذ هذه، وأنها جاءت لغرض، وسيقت لمعنى، وسجلت لهدف.

قال: لو أبطلت إذ، وحذفت من الكلام لاستحال عن معناه الذي هو به وفيه «إذ».

فإن قال قائل : فما معنى ذلك ؟ وما الجالب لـ «إذ» إذا لم يكن في الكلام قبله ما يعطف به عليه .

قيل له : قد ذكرنا فيما مضى أن الله جل ثناؤه خاطب الذين خاطبهم بقوله : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم» (١٦٨) بهذه الآيات، والتي بعدها فو بخهم مقبحاً لهم سوء فعالهم، ومقامهم على ضلالهم مع النعم التي أنعمها عليهم وعلى أسلافهم، ومدّهم بتعديد نعمه عليهم وعلى أسلافهم بأسه أن يسلكوا سبيل من هلك من أسلافهم في معصية الله، فيسلك بهم سبيلهم في عقوبته، ومعرفهم ما كان منه من تعطفه على التائب منهم استعتاباً منه لهم، فكان مما عدّد من نعيمه عليهم أنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً، وسخر لهم ما في السموات من شمسها وقمرها، ونجومها، وغير ذلك من منافعها التي جعلها لهم، ولسائر بني آدم معهم منافع، فكان في قوله : «كيف تكفرون بالله، وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم يمتكم، ثم يحيكم، ثم يرجعون معني : اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم إذ خلقتكم، ولم تكونوا شيئاً، وخلقت لكم ما في الأرض جميعاً، وسويت لكم ما في السماء، ثم عطف بقوله : «وإذ قال ربك للملائكة» على المعنى المقتضى بقوله : كيف تكفرون بالله إذ كان مقتضياً ما وصفت من قوله : اذكروا نعمتي إذ فعلت بكم وفعلت، واذكروا فعلى بأبيكم آدم إذ قلت للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفه» .

و يسترسل الطبري في الدّفاع عن رأيه، وتقديم السّند لدليله، وأن معارضه من رأى وماقدمه من الدليل ليس بعيداً عن كلام العرب، ولا غريباً عن نسجهم في كل ما يقولون .

يقول : فإن قال قائل : فهل لذلك من نظير في كلام العرب نعلم به صحّة ما قلت، قيل : نعم، أكثر من أن يحصى .

من ذلك قول الشاعر :

أجذك لن ترى بشُعَيْلِبات ولا بَيْدَانٍ نَاجِيَةً دُمُولاً

ولامتدارك والشمس طفلاً ببعض نواشغ الوادى حمّولا (١٦٩).
 فقال : «ولامتدارك»، ولم يتقدمه فعل بلفظه يعطف عليه، ولا حرف معرب
 إعرابه فيرد: «متدرك» عليه في إعرابه، ولكنه لما تقدمه فعل مجحود بـ «لن» يدل
 على المعنى المطلوب في الكلام، وعلى المحذوف استغنى بدلالة ماظهر منه عن
 إظهار ما حذف، وعامل الكلام في المعنى والإعراب معاملته أن لو كان ما هو
 محذوف منه ظاهراً، لأن قوله :

• أجذك لن ترى بشعيلبات •

بمعنى : أجذك لست براء، فرد : «متدركاً» على موضع : «ترى»
 كأن : لست والباء موجودتان في الكلام.

فكذلك قوله : «وإذ قال ربك للملائكة» مع ما بعده من النعم التي عددها
 عليهم، ونبههم على مواقعها ردّ «إذ» على موضع : «وكنتم أمواتاً فأحياكم، لأن
 معنى ذلك: اذكروا هذه من نعمي، وهذه التي قلت فيها للملائكة، فلما كانت
 الأولى مقتضية «إذ» عطف «وإذ» على موضعها في الأولى، كما وصّفنا من قول
 الشاعر في : «ولامتدارك» (١٧٠).

واضح إذاً من نص الطبرى في الدفاع عن رأيه، والإنكار على من ادعى
 زيادة إذ أنه سلك مسلكاً علمياً حيث عرض لشبهة أبى عبيدة في أنّ إذ في الآية
 زائدة أو لغو، ومؤدى هذه الشبهة أن إذ لم يكن قبلها كلام تعطف عليه فوجودها
 بعد واو العطف كلا وجود.

أجل أن إذ وقعت بعد واو العطف في آيات أخر، ولكن لم يدع أبو
 عبيدة زيادتها في هذه الآيات، لأن ما قبلها من الكلام يمكن أن يعطف عليه بالواو
 التي بعدها إذ .

من هذه الآيات: قوله تعالى: «وإذ نجيناكم من آل فرعون»، (١٧١) إنّ
 إذ «في هذه الآية لم يستطع أبو عبيدة أو غير أبى عبيدة أن يقول بزيادتها لأنها

سبقت بـ «اذكروا» الذي سبق في قوله تعالى : «يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم» (١٧٢)، ومن هنا نجد القرطبي يقول :

«إذ في موضع نصب عطف على : «اذكروا نعمتي» ، وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم، أى اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم» (١٧٣). ومنها : قوله تعالى : «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم» (١٧٤)، أى واذكروا إذ فرقنا بكم البحر، فـ «إذ» في الآية معطوفة على إذ السابقة في قوله تعالى : «واذكروا نعمتي».

ومنها : قوله تعالى : «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة» (١٧٥) يقال في إذ هذه ما قيل في إذ قبلها.

ومنها : قوله تعالى : «وإذ استسقى موسى لقومه» (١٧٦) فـ «إذ» معطوفة على ماسبق حيث تقدم الفعل : «واذكروا» في قصه واحدة المخاطب فيها بنو اسرائيل. ومن أجل ذلك كانت شبهة أبى عبيدة حيث لم يتقدم «وإذ» التي في قوله تعالى : «واذ قلنا للملائكة اسجدوا» (١٧٧) ما يعطف عليه، ومن هنا قال ما قال حول زيادتها.

ولوتدبر أبو عبيدة في الآيات التي قبلها لعلم أن الآيات السابقة لـ «واذ» كلها تذكرونهم الله تعالى، وتنكر على الكفار والمعاندين كفرهم بالله مع وجود هذه النعم التي تملأ السموات والأرض.

ومن دون شك فإن هذه الآيات تحمل معنى : واذكروا هذه النعم إذ فعلت لكم كذا وكذا أو على حد تعبير الطبري : «إذ فعلت بكم وفعلت»، كذلك فإنها إلى جانب ذلك تحمل معنى : واذكروا فعلى بأبيكم آدم إذ قلت للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة «.

على أن نقد أبى عبيدة في زيادة إذ في هذه الآية ليس مقصوداً على الطبري، فقد شاركه في نقد هذا الرأي الزجاج والنحاس وجميع المفسرين، كما نقده الزجاج في قوله بزيادة «إذ» في آية آل عمران : «إذ قالت امرأة عمران» وقد سجلنا رأيه في هذا الموضع الذي سبق ذكره.

أما في هذه الآية وهى : «وإذ قال ربك للملائكة» فإن القرطبيّ شارك الطبري رأيه في هذا النقد، بل ورأيه في التوجيه السابق، والتقدير الذي ذكرناه. قال القرطبيّ :

«وقال معمر بن المثنى أبو عبيدة: إذ زائدة، والتقدير: وقال ربك، واستشهد بقول الأسود بن يعضر:

فإذ وذلك لامهأة لذكّره والدهر يُعقب صالحاً بفساد(١٧٨) وأنكر هذا القول الزجاج والنحاس، وجميع المفسرين قال النحاس: وهذا خطأ لأن : «إذ» اسم وهى ظرف زمان ليس مما تزداد. وقال الزجاج : هذا اجترام من أبى عبيدة».

ومضى القرطبيّ يعرض رأيه في حلّ اشكائها في هذه الآية قائلاً : «ذكر الله عز وجل خلق الناس وغيرهم، فالتقدير: وابتدأ خلقكم إذ قال فكان هذا من المحذوف الذي دلّ عليه الكلام كما قال :

فإن النية من يخشها فسوف تصادفه أينما يراد : أينما ذهب

ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدر، تقديره: واذكر إذ قال . وقيل : هو مردود إلى قوله تعالى : «اعبدوا ربكم الذي خلقكم» (١٧٩)، فالمعنى الذي خلقكم إذ قال ربك للملائكة.» (١٨٠).

رأى ومناقشة :

أعتقد أننا أشبعنا القول في «إذ» التي في البقرة من قوله تعالى : وإذ قال ربك للملائكة» وبيننا خطأ أبى عبيدة في رأيه، والردود التي نُقِد بها، وبقي أن نضيف — إلى ما ذكره المفسرون في آية آل عمران : «إذ قالت امرأة عمران ربّ إنى نذرت لك ما في بطنى محرراً [آل عمران/٣٥] — رأياً آخر، تقتضيه بلاغة

القرآن، أو بعبارة أخرى بلاغة الحذف، وذلك لأن هناك آيات عديدة وردت فيها «إذ» بدون أن يذكر معها فعل سابق تتعلق به، وبخاصة في أوائل القصص القرآنية وقد درج علماء التفسير أن يقدروا لـ «إذ» هذه فعلاً تعلق به، ويفضلون أن يكون الفعل أمراً من «ذكر» للواحد: «اذكر»، وللمخاطبين «اذكروا»، ولهذا علة أو سبب فإن آيات من القرآن الكريم ورد فيها هذا الفعل بالذات . من ذلك قوله تعالى : —

١ — «واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ» (١٨١) وفيها قوله تعالى :

٢ — «واذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ» (١٨٢). ومنها قوله تعالى :

٣ — «واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُستضعِفُونَ في الأرض» (١٨٣). ومنها قوله تعالى :

٤ — «واذكُرْ في الكتابِ مريمَ إذ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا» (١٨٤) ومنها قوله تعالى :

٥ — «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ» (١٨٥). فإذا ماوردت بعض الآيات التالية من دون اذكر» أو اذكروا» قدر هذا الفعل المحذوف».

من ذلك قوله تعالى :

١ — إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَيْلِ لَكَ» (١٨٦) ومن ذلك قوله تعالى :

٢ — إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً.» (١٨٧).

ومن ذلك قوله تعالى :

٣ — «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» (١٨٨).

وما ذكرناه في هذا الرأى أشار اليه أبو البقاء في الكليات حيث يقول :
«كل ماورد في القرآن (واذ) ف (اذكر) فيه مضمراً أى اذكر لهم أو في نفسك كيفما يقتضيه صدر الكلام.

واذ منصوب به، وعليه اتفاق أهل التفسير مع أن القول واقع فيه ولم يجعلوه ظرفاً له بل مفعولاً به على سبيل التجوّر مع أنه لازم الظرفية، فعدلوا عن الحقيقة إلى المجاز، لعدم إمكان اعتبار مطروفة المضاف إليه» (١٨٩).

وقبل أن أنتهى من بحث «إذ» الزائدة في القرآن الكريم أحب أن أمر سريعاً على قضية الزيادة في القرآن الكريم، لأن الآراء التي سبقت ظاهرها منع هذه الزيادة، ورمي من قال بها بالجهل والإجرام على حد تعبير الزجاج عن أبى عبيدة حينما قال القول الذى سجلناه فيما سبق: «هذا اجترام من أبى عبيدة» .
قضية الزيادة في القرآن الكريم :

الواقع هناك آيات قرآنية كثيرة زيدت فيها حروف، ولا تحتل التأويل، لأن وجه الزيادة فيها أوضح من أن ينكر، وأشهر من أن يجحد وسنعرض هذه الحروف التي زيدت مؤكدين أن ذلك لا يخل ببلغة القرآن، بل لا يزرى بقديسته، ولا تعد هذه الزيادة جرأة على كتاب الله، وانتساب الزيادة إليه».

أولاً : زيادة الباء :

— من ذلك قوله تعالى : «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا» (١٩٠) فإن التقدير: فإن آمنوا مثل ما آمنتم به.

— ومن ذلك قوله تعالى : «وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم» (١٩١). أى لا تلقوا أيديكم، وعبر بالأيدي عن الذوات.

— ومن ذلك قوله تعالى : «جزاء سيئة سيئاً مثلها» (١٩٢)، فالمعنى على رأى الأخفش: جزاء سيئة مثلها، وكأنه استدل على ذلك بالآية الأخرى : «وجزاء سيئة سيئاً مثلها» (١٩٣)

— ومن ذلك : «وكفى بالله شهيداً»، (١٩٤) «وكفى بالله حسيباً» (١٩٥)،
«وكفى بجهنم سعيراً» (١٩٦).

— ومن ذلك قوله تعالى : «أسمع بهم وأبصر» (١٩٧)، فإن المعنى : صاروا ذوى
بصروسمع.

قال الزجاج : «وأما الدلالة على زيادتها في قولها : أكرم به، وقوله : «أسمع بهم
وأبصر»، فهي أن الفعل لا يخلو من أن يكون للمخاطب أو الغائب فلو كان
للمخاطب لشيء فيه الفاعل تثنيته للمخاطب، وجع بجمعه، وأنت لتأنيته، فلما
أفرد في جميع الأحوال، ولم يعتبر به الخطاب علم أنه ليس للمخاطب، وإذا لم
يكن له ثبت أنه للغائب» (١٩٨).

— ومن ذلك قوله تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» (١٩٩)، وما هو بمنزحته» (٢٠٠)،
وما أنتم بمؤمنين» (٢٠١).

وفي قوله تعالى : «بأَيُّكُمْ المفتون» (٢٠٤)، فقد قيل : الباء زائدة،
والتقدير : أيكم المفتون.

ومن زيادة الباء التي لا تحتمل التأويل قوله تعالى :
«أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى» (٢٠٥)، والتقدير : ألم يعلم أن الله يرى : لقوله تعالى في
آية أخرى : «ويعلمون أن الله» (٢٠٦).

وفي قوله تعالى : «وهزى إليك يَجْزَعُ النخلة» (٢٠٢)، فقد قيل : الباء
زائدة والتقدير : وهزى إليك جذع النخلة.

وفي قوله تعالى : «تَثْبُتُ بِالذُّهْنِ» (٢٠٣)، فقد قيل التقدير : تثبت الذهن بزيادة
الباء.

وقوله تعالى : «أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» (٢٠٧)، أى اقرأ اسم ربك لقوله تعالى
في آية أخرى : «فإذا قرأناه» (٢٠٨).

ثانيا : زيادة من :

- وكما زيدت الباء في بعض الآيات زيدت «مِنْ» ومن أمثلها:
- قوله تعالى : «مَالِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ» (٢٠٩) أى مالكم إله
 - قوله تعالى : «هل من خالقي غَيْرُ اللَّهِ» (٢١٠)
 - قوله تعالى : «وما من إله إلا اللَّهُ» (٢١١)
 - قوله تعالى : «وما من إله إلا الله واحد» (٢١٢)
 - قوله تعالى : «وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا» (٢١٣)
 - قوله تعالى : «فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» (٢١٤)

ثالثا : زيادة اللام :

من ذلك :

- قوله تعالى : «لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» (٢١٥)
- قوله تعالى : «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ» (٢١٦).
- قوله تعالى : «رَدَفَ لَكُمْ تَغْضُ الَّذِي تَشْتَعْبِلُونَ» (٢١٧)
- قوله تعالى : «وَأَذِ بَوَّأَنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ» (٢١٨)

ثالثاً : زيادة الواو :

من ذلك :

- قوله تعالى : «حتى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ» (٢١٩) جوابه قوله :
- «واقرب الوعد الحق». (٢٢٠) قال الفراء : الواو مقحمة. (٢٢١)
- قوله تعالى : «فلما أسلما وتله للجبين» (٢٢٢) الواو زائدة، أى تله.
- قوله تعالى : «إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت» (٢٢٣). الواو مقحمة» (٢٢٤).

رابعاً : زيادة «لا»

من ذلك :

— قوله تعالى : «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (٢٢٥).
قال : (لا) في قوله : «ولا الضالين» زيادة، «وجاءت زيادتها لمجيء (غير) قبل الكلام، وفيه معنى النفي، ألا ترى أن التقدير: لا مغضوباً عليهم ولا الضالين، وكما جاء: «وما يَسْتَوِي الأَخْيَاءُ وَلَا الأُمَوَاتُ»، (٢٢٦)، فكرر «لا» وهي زيادة، وكذلك هذا»

— ومن ذلك :

— وقوله تعالى : «وما يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» (٢٢٧). فـ«لا» زائدة والمعنى : وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون .
— ومن ذلك :

— قوله تعالى : «وحرام على قرية أهلكناها أَنَّهُمْ لَا يُرْجَعُونَ» (٢٢٨).
— قالوا «لا» زائدة، والتقدير: «وحرام على قرية أهلكناها رجوعها إلى الدنيا.
— ومن ذلك :

قوله تعالى : «لَسَلَّا نَعْلَمُ أَهْلُ لِكِتَابٍ» (٢٢٩)، قالوا : التقدير : ليعلم أهل الكتاب، و«لا» زائدة، أجمعوا على هذا (٢٣٠).
— ومن ذلك :

— قوله تعالى : «مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ»، والتقدير: مامنعك أن تسجد، فـ«لا» زائدة (٢٣١).

خامساً : زيادة «ما»

من ذلك :

— قوله تعالى : «فبما رحمة من الله» (٢٣٢).
— قوله تعالى : «فبما نَقَضْهُمْ ميثَاقَهُمْ وكفرهم» (٢٣٣)
— قوله تعالى : «فبما نَقَضْهُمْ ميثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ» (٢٣٤)

— قوله تعالى : «عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضْجَعَنَّ» (٢٣٥) أى عن قليل.

— قوله تعالى : «جندماً هنالك» (٢٣٦) أى جند هنالك (٢٣٧).

وبعد، فهذه نصوص سقتها لأثبت في ضوئها أن حروف الزيادة تقع في القرآن وليس وقوعها اعتباطاً أو جزافاً، لأن الأسلوب يقتضيها، حقاً إن زيادتها من مقتضيات المعنى ولكن، وجودها أيضاً من مقتضيات الأسلوب، وفرق بين المقتضى في مجال المعنى، والمقتضى في مجال الأسلوب.

وذلك أن الأسلوب هو من نسج العربية، والعربية لا تنكر مثل هذه الأساليب التي تزداد في الحروف، ولا تستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم جاء على أساليب لم يعرفها العرب، وإلا فما الداعي للتحدي، إذا كان أسلوبه مختلفاً ونمطه متبايناً، وطريقته في التعبير على غير نسق تعبيرهم.

إن هذه الحروف زائدة في المعنى، ولكنها طريقة أسلوبية جرى عليها القرآن الكريم وفق بعض الأساليب العربية الشائعة والقرآن من جنس ما يتكلمون، وأسلوبه جار على أساليب ما يقولون، ومن هنا كان تحديه لهم أتم، وعجزهم عن مجاراته أبلغ. ولذلك كان ابن بحر غير مستوعب لقواعد العربية حينما ادعى أن هذه الزيادة شذوذ و«الأولى ألا يكون في كلام الله شذوذ، وما يستغنى عنه» (٢٣٨).

وهذا الادعاء ذكره ابن بحر حينما تقرض بعض المفسرين للآية القرآنية «لثَلَا يَغْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ» (٢٣٩)، وقالوا : إن «لا» زائدة، والقائل وإن كان مجهولاً عند صاحب إعراب القرآن — فقد كشف عنه القرطبي حينما تقرض لهذه الآية فقال: إن «لاصلة زائدة مؤكدة» قاله الأخفش.

وقال الفراء : معناه : لأن يعلم و«لا» صلة زائدة في كل كلام دخل عليه .

قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت : لثَلَا يعلم أهل الكتاب أى لأن يعلم أهل الكتاب.

وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج متأنبىً يقطع الأيدي والأرجل فلما

خرج من العرب كفروا فنزلت : «لَا يَتْلُم» أى ليعلم أهل الكتاب» (٢٤٠) ومع اتفاق أهل اللغة والنحو وقد ائتمى المفسرين أمثال قتادة، وابن مجاهد فإن ابن بحر هذا أنكر هذه الزيادة، واعتبرها شاذة، والشذوذ في كتاب الله سوء أدب، ومحض افتراء، وكتاب الله منزّه عن هذه الشذوذ ونحن نحمد لابن بحر غيرته على كتابه الله، ولكن لانحمد له إنكاره هذه الزيادة واعتبارها شذوذاً، وقبل أن نردّ عليه ناقدين رأيه نحب أن نعرف من هو «ابن بحر هذا»؟ في هامش إعراب القرآن المنسوب للزجاج الذى حققه الأستاذ الفاضل ابراهيم الأبيارى يميّط اللثام عنه فيقول: «هو أبو عثمان بين بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ، ومن كتبه: «مسائل القرآن» ولعله هو الذى منه النقل هنا». (٢٤١).

وفي رأيسى أن ابن بحر هذا أشك أنه أبو عثمان بن بحر الجاحظ لأمرين: الأمر الأول أن الجاحظ ليس جاهلاً بقواعد العربية كما يدعى صاحب إعراب القرآن، فالجاحظ موسوعة في كل ضروب المعرفة السائدة في عصره، وليس من المعقول أن يكون الجاحظ جاهلاً بقواعد العربية، وهو يعلم مكانتها في الأدب، وقدرها في الفكر، إنها الوسيلة الأولى لتحصيل المعرفة.

الأمر الثاني : أن الجاحظ مشهور في كتب التراث، وبين علماء عصره بالجاحظ، وليس بابن بحر.

على أية حالة كانت . إن ردّ صاحب إعراب القرآن على ابن بحر في ادعائه أن حروف الزيادة في القرآن شذوذ ردّ مفحم، وقوى، لأنه مؤيد بالحجج مسنود بالبراهين.

قال : «وحمل ابن بحر زيادة «لا» على الشذوذ جهل منه بقواعد العربية، وليس كل من يعرف شيئاً من الكلام يجوز له التكلم على قواعد العربية .

وليس كون : «لا» زائدة في فحوى خطاب العرب مما يكون طعناً من الملحدة على كلام الله، لأن كلام الله منزل على لسانهم، فما كان متعارفاً على لسانهم لا يمكن الطعن به على كتاب الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وكيف يكون زيادة: «لا» شاذة، وقد جاء ذلك عنهم وشاع كقول الهذلي.

أَفَعَلِكِ لَا بَرَقَ كَانَ وَمِیْضَهُ غَابَ تَسْمُهُ ضِرَامٌ مُثَقَّبُ (٢٤٢)
أى إفمن ناحيتك أيتها المرأة هذا البرق الذي يشبه ضوءه ضوء غاب.
وانشد أبو عبيدة للأحوص :

وَتَلَحَّيْتُنِي فِي اللَّهِو أَلَّا أُجِبَّهُ وَلِلَّهِو دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلٍ (٢٤٣)
أى : أفى اللهو أن أحبه و«لا» زائدة.
ومنه ما أنشده سيويه لجرير:

مَابَاثُ جَهْلِكَ بَعْدَ الْجَلْمِ وَالذِّينِ وَقَدْ عَلَاكَ مَشِيبٌ حِينَ لَاحِينَ (٢٤٤)
«لا» فيه زائدة، إذا قلت : علاك مشيب حين حين فقد أثبت: «حيناً»
علاه فيه المشيب، فلو جعلت: «لا» غير زائدة لوجب أن تكون نافية على حذها في
قولهم: جثت بلامال، وأُثِّتُ بلاغنيمة، فنفيت ما أثبت من حيث كان النفي
بـ«لا» عائماً منتظماً لجميع الجنس.

فلما لم يستقم حمله على الجنس لتدافع العارض في ذلك حكمت
بزيادتهما فصار التقدير: حين حين، وهو من باب : حلقة فصة، وخاتم حديد،
لأن الحين يقع على الزمان القليل كالساعة ونحوها وعلى الطويل كقوله تعالى :
«هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر» (٢٤٥) وعلى ما هو أقصر من ذلك كقوله
تعالى: «تَوَتَّى اْمَكَلَهَا كُلُّ حِينٍ» (٢٤٦) فصار : حينٌ حينٍ كقوله:
• ولولا يوم يوم ما أردنا • (٢٤٧)

ومنه قول الشماخ :

أَعَائِشُ مَا لِأَهْلِكَ لَا أَرَاهُمْ يُضَيِّعُونَ الْهَيْجَانَ مَعَ الْمُضَيِّعِ (٢٤٨)
وروى التورثي عن أبي عبيدة أن : «لا» زائدة.
ومنه قول المراربيت الكتاب :

وَلَا يَنْطِقُ الْفَحْشَاءُ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ إِذَا جَلَسُوا مَنَا وَلَا مِنْ سَوَائِنَا» (٢٤٩)

ثم قال في ختام نقده لابن بحر: «وزيادة الحروف في التنزيل كثير» (٢٥٠).

وبعد هذه الجولة الفكرية في قضية خطيرة، وهى قضية الزيادة في القرآن الكريم وضح لنا أن زيادة الحروف ليست ضرباً من اللغو، ولكنها أسلوب جرى على نهجه العرب، ونسج على منواله فصحاؤهم وبلغاؤهم.

هذا بالنسبة للحروف أما بالنسبة للأسماء، فأننى لأعترف مطلقاً بهذه الزيادة، لأن الأسماء، ما وضعت الآ لتدل على المعانى، وبالأسماء تتم أجزاء الجملة، وأذا ما زيد اسم لامتعى له أدى ذلك إلى تمزيق أوصال الجملة، وتحويلها إلى جملة لا تؤدي إلى معنى.

ومن هذه الأسماء «إذ» وهى في معظم أحوالها ظرف جاء لغرض، واسم جاء لمعنى فالقول بزيادتها رأى محجف. وقد عرضنا الآراء النقدية التى صوبت سهامها نحو من قال بزيادتها. ونكتفى بهذا القدر من البحث في إذ الزائدة، ولعلنا قد أشبعنا القول فيها

وقبل أن ننتهى من بحث إذ الزائدة نحب أن نشير الى مسألتين تتعلقان بـ «إذ» من حيث الاعراب والمعنى، وهما:

أ — جرّ إذ بالإضافة بعد : «بَعْدَ».

ب — دخولها على أداة شرط جازمة .

وستتناول هاتين النقطتين في ضوء المعنى والتركيب .

أما جرّ إذ بالإضافة بعد بَعْد فإن النحويين يقولون: إن إذ في أغلب أحوالها لا تخرج عن الظرفية، فهى من الظروف غير المتصرفة أى اللازمة للظرفية. والظروف غير المتصرفة منها «مالا يخرج عن الظرفية أصلاً مثل قط، وعوض، تقول: ما فعلته قط، ولا أفعله عوض» ومنها: «مالا يخرج عنها إلى شبهها وهو الجرّ نحو: قبل، وبعْد، ولدن وعند، فيقضى عليهن بعدم التصرف» مع أن حين تدخل عليهن إذ لم يخرجن عن الظرفية إلا إلى ما يشبهها، لأن الظرف والجار والمجرور سيان في التعلّق بالاستقرار، والوقوع خبراً، وصلة، وحالاً، وصفة» (٢٥١).

وإذ من الظروف الملازمة للظرفية، ولكنها تخرج عن الظرفية إلى شبهها حينما تجرّب «بعد» .

قال الرضى: «وتلزمها الظرفية إلا أن يضاف إليها زمان كقوله تعالى: «بعد إذ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا» (٢٥٢)، وقوله تعالى: بعد إذ أنتم مسلمون» (٢٥٣)، ثم قال: «ولم يعمد مجروراً باسم إلا بـ»بعد« (٢٥٤) ومعنى ذلك أن إذ الظرفية ملازمة دائماً للظرف، ولكنها تخرج عن الظرفية إذا جرّت: بـ «بعد»، ولها في ذلك نظير. فـ «قبل» و «بعد» و «لدى» و «عند» ظروف تخرج عن الظرفية إلى شبهها وهو الجرّ بحرف: «مِنْ» مثل: «لله الأمر من قبل ومن بعد» (٢٥٥) وأما دخول إذ على الشرط، فالنحويون، وعلى رأسهم سيبويه يرون أنه إذا دخلت: «إذ» على أداة شرط جازمة امتنع جزم الأداة لأن الجزء في غير موضعه، أو بعبارة أخرى: إن «إذ» إذا دخلت على أداة الشرط الجازمة ألغت وظيفة الشرط.

يقول سيبويه: «فمن ذلك قولك: أتذكر إذ من يأتينا نأتيه.. وإنما كرهوا الجزء ها هنا، لأنه ليس من مواضعه، ألا ترى أنه لا يحسن أن تقول: أتذكر إذ إن تأتينا نأتك، كما لم يجز أن تقول: إن إن تأتينا نأتك. فلما ضارع هذا الباب باب إن و«كان» كرهوا الجزء فيه» (٢٥٦).

وفي ضوء نص سيبويه يتضح لنا أن إذ ألغت عمل أدوات الشرط الجازمة حينما دخلت عليها. والسبب في ذلك يشير إليه سيبويه حينما يقول: إنه لا يحسن أن تقول: أتذكر إذ إن تأتينا نأتك» لأن إن الشرطية الجازمة تدل على المستقبل على حين إذ الظرفية تدل على الماضي، والتقاء الماضي والمستقبل مستحيل عقلاً ووجوداً.

من أجل ذلك حينما تدخل إذ تتجرّد إن الشرطية من معنى الجزء وإذا جرّدت من معنى الجزء جرّدت من التأثير في الأفعال التي بعدها، فبقى كما هي، والسبب في ذلك إذ.

وهذا التفسير الذي هديت إليه لنص سيبويه. يؤيده قول سيبويه في نفس الموضوع: «وتقول: أتذكر إذ نحن من يأتينا نأتك، فنحن فصلت بين «إذ» و

«من» (٢٥٧)، والفصل بـ «نحن» وقف حائلاً بين الزمنين الماضي المتمثل في
إذ، والمستقبل المتمثل في «مَنْ» الشرطية. ومن أجل ذلك صَحَّ الجزم بـ «من»
لوجود الفاصل: «نحن»

وأما إذا دخلت إذ على أداة شرط جازمة في الشعر، فإنه يجوز الجزم على
الضرورة.

يقول سيبويه :

«وقد يجوز في الشعر أن يجازى بعد هذه الحروف، فتقول: أتذكر إذ من
يأتنا، فإما أجازوه لأن إذ وهذه الحروف لا تغير ما دخلت عليه عن حاله قبل
أن تجيء بها، فقالوا: ندخلها على: من يأتنا، ولا نغير الكلام كأننا قلنا، من
يأتنا، كما أنا إذا قلنا: إذ عبدالله منطلق، فكأننا قلنا: عبدالله منطلق، لأن إذ
لم تحدث شيئاً لم يكن قبل أن نذكرها» (٢٥٨).

وبهذا النص، وضع سيبويه النقاط على الحروف في تفسير جواز الجزم
بأداة الشرط مع دخول إذ عليها في باب الشعر.

وسبب الجواز أن إذ دخلت بعدما حدث التركيب الشرطي بالأداة فكان إذ لم
تحدث فيه شيئاً.

ولاشك أن سيبويه أحس بالخرج في هذا الجواز، فأراد أن يفسر جواز
هذا الأسلوب في الشعر فقط من باب الضرورة، أما في التثرفان هذا الأسلوب
مرفوض كما قلنا لاختلاط الماضي بالمستقبل مما يسبب اضطراباً في معنى الجملة،
ولذلك فإن الشرط مع إذ كلا شرط.
وعلق ابن جنى على قول القائل :

• أتذكر إذ من يأتنا •

فيقول : «فلا يجوز إلا في ضرورة شعر» (٢٥٩)